Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

الطب الوقائي في رسائل الشيخ عبد السلام الأسمر إلى مريديه
آفة التدخين نموذجاً

د. عمر علي العاني*

الحمد لله رب العالمين، بعث لنا رسلا مبشرين ومنذرين، ويسر لنا بهم سبل الهداية واليقين، وحفظ عباده الصالحين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وقدوة العارفين، وإمام المتقين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الخيرين، وعلى من اتبع هداه وسار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد.

فمنذ ما يزيد على أربعة عقود من الزمن؛ كنت طالبا في زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، أتلقى علوم الشريعة، وعلوم اللغة، وكذلك علم التوحيد والبلاغة، بعد أن حفظت ما يسره الله لي من القرآن الكريم، وكانت هناك بعض الأسئلة؛ التي ترد على خاطري، بل إنها في أحيان كثيرة تتلاطم وتتماوج في تلافيف مخي وتفكيري؛ -وأنا في تلك المرحلة من العمر- حول: من هو الولي؟

هل هو ما يسمى عندنا بـ(المرابط)؟! أم هو (الدرويش)؟! أم هو الصوفي الزاهد؟! أم هو الذي تأتيه أو يأتي بخوارق العادات؟!. هل هو (المجذوب)؟! أم هو (الغوث)؟!

وكثيرة هي تلك الأسماء والألقاب التي كنت أسمعها من الناس، ولم أجد لها معنى أو تعريفا أو اصطلاحا مفهوما وواضحا بالنسبة لي في تلك السن المبكرة من العمر، ثم السؤال المهم والأهم بالنسبة لي كان: من هو الشيخ عبد السلام الأسمر،

* جامعة المرقب، كلية الطب البشري.

مؤسس هذه الزاوية التي تسمى باسمه (زاوية الشيخ) وسط هؤلاء؟.

وكنت أسأل من هم أكبر مني سنا وعلما واطلاعا بل لقد سألت كثيرا من أساتذتي في ذلك الزمان؛ خاصة من درست عليهم علم التوحيد (ككتاب شرح الخريدة، وكتاب مذكرات في التوحيد) وأنا في المراحل الأولى من الدراسة، وازددت إلماما ببعض الأصول سألتهم؛ والكثير منهم لم يجبني الجواب الذي يزيح عني هذه الطلاسم، ويرسم في ذهني ما كنت أشتاق لأن أعرف حول ما كنت أسأل.

لقد درسنا من ضمن ما درسنا في مادة التوحيد في تلك المرحلة: المعجزة، والكرامة، والفرق بينهما، وكذلك السحر، وخوارق العادات، لكن ذلك -أيضاً- لم يكن كافيا لأن يزيح هذا الغبار الذي علق بالفكر عن من هو الولي؟! ومن هو الساحر؟! ومن هو الدرويش؟! ... إلخ؛ لترجع الأسئلة مرة أخرى أكثر غموضا، ويزداد الضباب أكثر عتمة حول الإجابة عنها.

والذي زاد من انبهام الأمر عندي وعند الكثيرين في تلك الفترة هو ما كنا نرى ونشاهد الكثير من الطوائف الصوفية، خاصة في المواسم والأعياد الدينية، تأتي لما يعرف بـ (مزار الشيخ)، تأتي من شتى البقاع، تضرب الدفوف، وتنشد المدائح وكان من بين من يأتون مع هذه الطوائف من يأتي ببعض الأعمال والحركات التي تعد من خوارق المعهود لدينا ولمستوى عقولنا؛ مثل أكل الجمر!! ووضع أسياخ حديدية متوهجة بالنار في أفواههم!! وكذلك إدخال أدوات حادة في بطونهم وعيونهم وأفواههم!! حتى تخرج من مكان آخر!! أو تغرس عميقا في الجسم!!!.

وهذا كله كان يتم على مرأى الناس المتفرجين؛ بعد أن ينادي مناد بالصوت العالي على بعض الأسماء، ومن ضمنهم كان ينادي على الشيخ عبد السلام الأسمر، ثم يعطيهم الإذن بفعل هذه الأشياء الخارقة للعادة.

وكان من ينكر على هذه الأعمال والأفعال قلة من طلاب المعهد الأسمري الديني وأساتذتهم، وكذلك قلة من الحاضرين المتعلمين في ذلك -وهم قلة-، أما البقية -وهم الأغلبية- فقد كانوا في ذهول بين مصدق ومكذب، ومحتار ومشدوه من هذه الأفعال والأعمال؛ التي تخالف طبيعة الأشياء.

وتزداد الحيرة، وتنبهم الأمور، وتختلط الأشياء، ويبقى السؤال: من هو الشيخ عبد السلام الأسمر مؤسس هذه الزاوية قبل عدة قرون من الزمن؟ وماذا كان دوره في حياته؟

هل كان يفعل هذه الأشياء أو يأمر بها؟ هل كان ساكتا عنها إن كانت تفعل حال حياته؟ أم أن هذا كله حدث بعد وفاته، وألصقت به هذه الأشياء عن قصد أو غير قصد؛ لتحشر وتدس في عقول الناس -خاصة العامة منهم-؛ عبر حقب من الأزمنة؛ كان فيها الاستعمار الأجنبي، ولم يكن هناك نظام ولا دولة، ولا تعليم -خاصة التعليم الديني- وابتعاد الناس وإبعادهم عن الإلمام بحقيقة التصوف والزهد؛ الذي كان شيخنا -رحمه الله- قطبه وأميره، إن لم نقل الأوحد؛ فهو الأشهر في زمانه؟!

وقبل عدة سنوات قرأت مقالا لأحد من عاصرتهم طالبا بالمعهد الأسمري والذي أصبح الآن أستاذا بارعا، وباحثا موثقا، ولأصول العلم والمعرفة والتصوف دارسا[1] -يطالب- بل ويستصرخ ويناشد في مقاله هذا أهل العلم والمعرفة بنفض الغبار عن حقيقة هذا العالم التقي الورع، الشيخ عبد السلام الأسمر.

ولقد حرك هذا المقال الشعور في نفسي مرة أخرى حول سؤالي القديم المتجدد في ما ذكرته سابقا. فتقت وتاقت تلك النفس لأن أرى وأشهد ملتقى علميا؛ على نطاق يضم علماء الأمة، وباحثيها ومخلصيها؛ للتباحث والتدارس حول هذه القضية؛ التي شغلت بالي كما شغلت بال الكثيرين ممن يعنيهم ويهمهم أمرها.

ثم وإذا بي أطلع على إعلان عن إقامة مؤتمر علمي عالمي؛ يبحث من ضمن ما يبحث في سيرة هذا العالم الجليل، والفقيه المتصوف، والزاهد التقي؛ بعنوان: (المنارة الأسمرية من الزاوية إلى الجامعة) وتحت شعار (من أجل دور فاعل لمؤسساتنا العلمية في الحفاظ على الهوية وترسيخ مبدأ الوسطية فكرا وعقيدة وسلوكا).

فقررت -مستعينا بالله، ثم بتشجيع من زملائي، وممن يعنيهم الأمر، وبما توفر لي من مصادر علمية وتاريخية- المشاركة في المحور الأول، وهو: الشيخ عبد السلام الأسمر: نشأته، تحصيله العلمي، رحلاته، تأسيسه للزاوية الأسمرية، آثاره؛ لأبحث في مسألة تحصيله العلمي.

ومن خلال اطلاعي على ما توفر لي من مصادر؛ حول حياة الشيخ، وجهاده ضد

1- هو الشيخ الدكتور الصديق عمر يعقوب في بحث بعنوان: (صفحات من تاريخ التصوف في ليبيا، الشيخ عبد السلام الأسمر العالم المغمور، والصوفي المفترى عليه) نشر في مجلة العلوم الإنسانية التي تصدرها كلية الآداب والتربية بزليتن العدد الثاني 1411هـ.

الجهل والتخلف، وتنقله في شتى أصقاع المعمورة، في البلاد الإسلامية؛ متعلما أو معلما؛ عثرت على كثير من الإجابات حول كثير من تلك الأسئلة التي نوهت عنها سابقا، وعرفت أن هذه الأسئلة وتلك الحيرة كانت لدى الكثيرين من العلماء والفقهاء والعارفين؛ والتي تشابهت وتداخلت بمثل ما كانت متشابهة ومتداخلة عندي؛ فشدوا عصى الترحال إلى مصادر العلم والمعرفة عن حياة الشيخ؛ فحققوا المخطوطات، ودرسوا الرسائل التي كتبها الشيخ الجليل -عليه رحمة الله- إلى أصحابه ومريديه في مختلف بقاع الإسلام، وكذلك اطلعوا على الكتب والمؤلفات التي ألفت عن حياة الشيخ وسيرته، فدرسوها بعين ثاقبة، وعقل مستنير، وعلم وافر، وخلصوها -بعون الله وتوفيقه- مما علق بها من شوائب دست فيها عن قصد أو غير قصد، فكانت دراستهم وتحقيقاتهم خير زاد لي في هذه الورقة البحثية.

واطلعت -من ضمن ما اطلعت وقرأت في هذه المصادر- على رسائل الشيخ إلى مريديه وأصحابه في كثير من بقاع الإسلام، داخل ليبيا وخارجها، فوجدته يكتب لأصحابه بتونس يحذرهم من مرض الطاعون، ويفرق بين الوباء والطاعون بلغة العالم المطلع المتابع، ناقلا لهم ما أوصى وأمر به الأطباء في ذلك العصر من أمثال الطبيب المسلم، أبو علي بن سينا الملقب بـ (الفيلسوف الرئيس)، مبينا لهم كيفية أخذ الحيطة والحذر عند ظهور هذا المرض الفتاك، ومحذرا من التفريط في علاجه. وهو أي شيخنا أدرك بسعة اطلاعه أن هذا المرض الفتاك قد أباد كثيرا من البشر.

وتشير المصادر الطبية[2] إلى أن ثلث سكان أوروبا قد أبيدوا عن آخرهم خلال القرن الرابع عشر الميلادي، وحيث أن شيخنا الذي ولد في القرن السادس عشر الميلادي ومن خلال رسالته إلى مريديه بتونس حول مرض الطاعون فإن ذلك دليل على استشراء هذا المرض بشكل لافت للنظر حتى إن شيخنا أشار على أصحابه بما ورد في حديث رسولنا الكريم ﷺ: «الطاعون رجز وعذاب أرسل على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»[3] وهو سبق علمي لرسالة رسولنا الكريم ﷺ، فيما يعرف حديثا بالحجر الصحي،

2 - TEXT BOOK OF PAEDIATRIC INFECTIOUS DISEASE - PRINCIPLES AND PRACTICE BY HAL B. JENSON, ROBERTS BALTIMORE

3- أخرجه مسلم في صحيحه (204/14) من رواية أسامة بن زيد نقلا من كتاب رسائل الأسمر إلى مريديه. مصطفى عمران رابعة. دار المدار الإسلامي، بيروت، ط 1، 2003م.

وهـو عـزل المـريض أو المرضـى وعدم السماح باختلاطهم حتى لا ينتقل هذا المرض وهـو الطاعـون -الذي اشتق اسمه من الطعن إشارة إلى مدى فتكه بالمصاب- إلى غيره مـن الأصـحاء، ثم يقول الشيخ في الرسالة ذاتها: «وألا يكثر الإنسان من استنشاق الهواء الـذي عفـن»[4] وحـسب فهمـي فإن الشيخ يقصد به الهواء الملوث بالميكروب المسبب لهـذا المـرض الفـتاك، وقـد ثـبت علمـيا أن الطاعون الرئوي (وهو أحد أنواع الطاعون) ينـتقل مـن الـشخص المـصاب إلى آخـر غير مصاب عن طريق استنشاق الأخير الرذاذ المحمـل بالميكـروب المـسبب للمـرض والخـارج مـن رئـتي الـشخص المصاب أثناء السعال.

إن كـثيرا مـن الـدول في وقتنا هذا سنت قوانين تحرم فيها سفر مواطنيها إلى أي بلد يثبت فيه انتشار مرض الطاعون، ولا يسمح للقادمين من تلك الدول التي بها المرض من دخول البلاد إلا بعد عزلهم وحجرهم وتفحص أوراقهم وشهاداتهم الصحية؛ حتى لا يصاب من سيسافر إلى بلد بها الطاعون، ولا يتسبب القادم منها في انتشاره بين الأصحاء وسـكان الـبلاد، هـذه القـوانين واللوائح -والتي سبقت إليها رسالة محمد ﷺ قبل خمسة عـشر قـرنا مـن الـزمن، والـتي عمل بها أتباعه وصفوة تابع التابعين من أمته- أدت إلى انحـسار هـذا المرض؛ فعدد الحالات التي يتم تشخيصها سنويا في العالم الآن هي فقط ما بين (1000-3000) حالة[5].

وشيخنا الجليل هو من التابعين، حيث نقل عن جده -صلوات الله وسلامه عليه- هذا الحديث الجامع المانع، وما أشار به علماء الطب كما أشرنا سلفا.

ثـم هـا هو ينهى أصحابه في نفس الرسالة عن «البول في المستحم، والتبول في المـاء الـراكد»[6]، حتـى إذا شـرب منه إنسان أصيب بكثير من العلل والأمراض، والماء الراكد هو بؤرة من بؤر العدوى لتكاثر الجراثيم فيه. ثم يقول في الرسالة ذاتها: «وطرح القمّل على الطريق»[7].

4- رسائل الأسمر عبد السلام الإدريسي الحسني إلى مريديه ص 258-259.

5- متاح على:

VIRGINIA DEPARTMENT OF HEALTH WWW. V D H. STATE – V A - US

6- رسائل الأسمر عبد السلام الإدريسي الحسني إلى مريديه، من رسالته إلى أصحابه بتونس ص 277.

7- المصدر نفسه.

والقمل كما هو معروف حشرة تنقل الكثير من الأمراض؛ مثل التيفوس، والحمى الراجعة، وحمى الخنادق[8]، علاوة على ما يسببه القمل من مظهر سيء، ووساخة مشينة لهيئة الآدمي وجسمه.

وهو ينهاهم كذلك «عن تقليم الأظفار بالأسنان»[9]، لكونه سلوكا مشينا، وعادة سيئة لا تليق بالمسلم، إضافة إلى ما تسببه من نقل الأمراض الناتجة عن سكون الجراثيم تحت الأظافر إلى الفم والأسنان.

وفي الرسالة نفسها ينهاهم عن (الزنا)[10]، والذي ثبت علميا وطبيا أنه أحد الأسباب المؤدية للإصابة بمرض عوز المناعة المكتسب (الإيدز)، الناتج عن هذا الفعل المشين؛ الذي تحرمه الشريعة، وترفضه النفس العفيفة، ويجعله الطب كأحد الأسباب المهمة في الإصابة بكثير من الأمراض؛ التي من بينها السيلان والزهري، إضافة إلى مرض الإيدز.

وفي رسالة أخرى إلى أصحابه بسوس الأقصى (أي المغرب حاليا) ينهى أصحابه عن (الإكثار من الأكل والشرب)؛ ناقلا لهم حكمة لقمان: «يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة»[11].

وهذه -أيضا- حقيقة أثبتتها التجارب العلمية؛ فعند امتلاء المعدة يسري الدم نحو الجهاز الهضمي أكثر من جريانه في بقية أنحاء الجسم؛ وخاصة الدماغ؛ مؤديا إلى قصور في نشاط الدماغ والتفكير والتركيز فيه، زيادة على الارتخاء العام الذي يحس به الإنسان بعد الشبع.

ثم ينقل لهم ما قاله بعض الحكماء من أن: «الدواء الذي لا داء فيه أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وأن ترفع عنه يدك وأنت تشتهيه»[12]، وهذا مصداق لما ورد:

---

8 -HAL B JENSON ROBERTS.BALTIMORE TEXT BOOK OF PAEDIATRIC INFECTIOUS DISEASE - PRINCIPLES AND PRACTICE

9- رسائل الأسمر عبد السلام الإدريسي الحسني إلى مريديه، من رسالته إلى أصحابه بتونس ص 278.

10- المصدر نفسه، ص 278.

11- رسائل الأسمر عبد السلام الإدريسي الحسني إلى مريديه، من رسالته إلى أصحابه بسوس الأقصى ص 286، 287.

12- المصدر نفسه.

« نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع »، فالإفراط في الأكل يؤدي إلى كثير من الأمراض؛ مثل السمنة، وضغط الدم، والسكر، وغيرها، والتي تحتاج إلى علاج بالأدوية، وهذه الأدوية قد تؤدي -أيضاً- لكثير من الأمراض.

كذلك يشير لأصحابه بأن « كثرة الأخلاط سبب الأمراض »، وفي علم الطب الحديث يوصي الأطباء بالاتزان في الغذاء، فإلى جانب عدم الإكثار من الأكل كذلك يجب التركيز على نوعية وكمية الطعام؛ حتى لا تحدث السمنة وتكثر البلاهة وتزداد العلل، وقديما قيل: « لا تأكل السمك وتشربَ اللبن ».

ثم نأتي إلى رسالة الشيخ الأسمر إلى أصحابه بمدينة (تمبكتو) -بدولة مالي حاليا- حيث يشير لهم في هذه الرسالة وينبههم إلى موضوع مهم وهو التبغ، وشرب الدخان.

وسيتركز حديثي في هذه الورقة البحثية حول هذه الآفة لسببين رئيسين:

أولهما: أن ما ورد في كلام الشيخ الأسمر عن التدخين والتبغ ينم عن إلمام بهذا الموضوع المهم، ويشير ويثبت أن هذا الشيخ -رحمة الله عليه- لم يكن يعالج النفوس والقلوب من أسقامها وجهلها فحسب؛ بل إنه كذلك يداوي الأجسام وما بها من أمراض قد تتعرض لها عند سلوك أصحابها مسالك تجلب لهم المرض والموت والهلاك، وأن الشيخ قد سبق الكثيرين من علماء عصره وممن جاءوا بعده في التنبيه إلى مضار التدخين، وهو ما يعرف اليوم بالطب الوقائي PREVENTIVE MEDICINE

وهو ما تعول عليه كثير من بلدان العالم الآن؛ في منع ظهور كثير من الأمراض والعلل، والحد من انتشارها في المجتمع، وذلك بشتى السبل التي من ضمنها ما يعرف بالتثقيف الصحي HEALTH EDUCATION

ثانيهما:

أ- أن التدخين هو آفة هذا العصر أكثر من العصور السابقة؛ وذلك لتهاون الناس في أمره، ولتسابق شركات صناعة التبغ في الدعاية له، ولتقاعس السلطات في الحد من ذلك، ولما يجلبه التدخين والتبغ من الأمراض والعلل، وما يسببه من دمار للجسم والبيئة والمخالطين لمستعمله، وكذا ما يسببه من وفيات، وهو شر يجره الآدمي على نفسه حتى إن آخر إحصائية دراسية لمنظمة الصحة العالمية W H O خلال

العام 2007م[13] تشير إلى أن ما يقارب من (10800) مستعمل للدخان يموتون يوميا، أي ما يعادل أربعة ملايين نسمة يموتون سنويا بسبب التدخين. ثم يأتي تقرير منظمة الصحة العالمية لسنة 2008م[14] ليشير إلى استفحال هذه الآفة واستشراء وبائها حيث جاء في التقرير أن تعاطي التبغ يقتل (5400000) نسمة سنويا، أي حوالي (14000) حالة وفاة يوميا بسبب التدخين، وأن الوباء يستفحل خاصة في دول العالم النامي، وأن التبغ يدمر الجسد البشري؛ لدرجة أنه يمثل عامل خطر لستة من أصل ثمانية أسباب رئيسة مؤدية إلى الوفاة في العالم.

ب- وقد درس البحاث والعلماء والأطباء بالتحاليل المعملية وبالمشاهدة والاستنتاج أن التبغ بتأثيره القاسي والمدمر لحياة الإنسان إنما كان بسبب ما يحتويه التبغ من مواد كيماوية؛ فهو يحتوي على ما يقارب (4000) مادة كيميائية؛ من بينها (100) مادة سامة للجسم، وحوالي (60) مادة مسرطنة[15]، ومن بين هذه المواد السامة ما يلي:

- مادة الإستيون ACETONE وهو مركب يستعمل في إزالة طلاء الأظافر لدا النساء.
- مادة النشادر: وهو مركب يستعمل في صناعة المنظفات الصناعية؛ كالصابون وغيره.
- الزرنيخ: وهو يدخل في تركيب السم القاتل للفئران.
- النيكوتين: وهو يسبب الإدمان.
- مادة الدي دي تي: DDT وهي مادة تستعمل في إبادة الحشرات.
- غاز أول أكسيد الكربون: وهو غاز سام يتحد مع هيموجلوبين الدم 110 مرات؛ قدر اتحاد الهيموجلوبين مع الأكسجين، فهو يحل محل الأكسجين في الدم، ويضعف اتحاده بالهيموجلوبين.
- الميثانول: الذي يدخل في صناعة وقود الصواريخ

13- العربي العلمي، ملحق علمي يصدر عن مجلة العربي الكويتية، العدد 37، يونيو 2008م، مقال حول التدخين.

14- متاح على:

WWW. TOBACCO FREE CENTER ORG \ AN \ GLO BAL TOBACCO –REPORT 2008.

15- متاح على:

WWW WWW. TOBACCO FREE CENTER ORG WWWHOINT \ TOBACCO

ج- لقد ثبت بالتحقيق والتقصي أن أثر التدخين يصل إلى كل خلية من خلايا الجسم، وبالتالي فلا يوجد عضو من أعضاء هذا الجسم بمنأى عن التأثر بالدخان وإصابته بالأمراض، ومن بين هذه الأمراض:

1. أمراض السرطان: مثل سرطان الرئة والفم والحنجرة؛ خاصة لدا مدخني السجائر، وسرطان اللسان والبلعوم لمدخني البايب، سرطان الشفة لمدخني الغليون، وسرطان الدم (اللوكيمياء)، وسرطان الحوض والمثانة البولية والكلى والبنكرياس والمعدة والكبد والشرج.
2. أمراض القلب والأوعية الدموية

- تقلص الشرايين: حيث ثبت أن التدخين يسبب تقلصا في الشرايين التي تغدي القلب (الشرايين التاجية)، وتقلصها يؤدي إلى ما يعرف طبيا بـ (الذبحة الصدرية)، ثم عندما يزداد هذا التقلص في هذه الشرايين، وينحسر الدم عن القلب؛ فإن هذا يؤدي إلى ما يعرف بـ (احتشاء القلب) MAYOCARDIAL INFARCTION، ومن ثم يؤدي إلى موت وفشل عضلة القلب، وهذا ما يعرف بـ (السكتة القلبية) [16]. كذلك فإن التدخين يؤدي إلى التهاب الأوعية الدموية للأطراف -وخاصة السفلى- مما يؤدي إلى قصور في الحركة، وتقرحات في الأطراف السفلى BUERGER'S DISEASE[17] [18].
- والتدخين كذلك يعتبر من أهم العوامل المؤدية إلى الإصابة بمرض ارتفاع ضغط الدم، وما ينجم عنه من مضاعفات على العين والقلب والكلى وغيرها، وذلك بسبب تأثير النيكوتين[19] الذي يحتويه التبغ

3. أمراض الجهاز التنفسي: حيث إن التدخين يؤدي إلى: رائحة الفم الكريهة، التهاب الجيوب الأنفية، أمراض الجهاز التنفسي السفلى مثل الربو الشعبي، أمراض القصبات الهوائية المزمنة، النزلات الصدرية المتكررة، صعوبة التنفس.

16- CECIL ESSENTIALS OF MEDICINE BY ANDEREOLI 6 TH EDITION 2004

17- DAVIDSONIS PRINCIPLES AND PRACTICE OF MEDICINE

18- PRINCIPLES OF SPECIAL PATHOLOGY PART. GAMAL NADA. MD

19- BRAUNWALD–HEART DISEASE ATEXT BOOK OF CARFIO VASCULAR MEDICINE

4. أمـراض الجهـاز الهـضمي: مـثل: الـتهابات اللثة، تسوس الأسنان ونخرها وتساقطها، قرحة المريء والمعدة والاثنا عشر.

5. أمـراض الجهـاز البولي والجهاز التناسلي: حيث يؤدي تناول التبغ إلى الإصابة بكثير مـن حـالات العقـم حـيث وجـد بعـض الباحثين من جامعة بوسطن حدوث تحلل لبويـضات الفئـران وتـدميرها خـلال ثلاثـة أيام من حقن هذه الفئران بالمادة السامة الموجودة في السجائر.

6. أمراض الجهاز البصري: فالتدخين يؤدي إلى:
   - عتامة العين بسبب ظهور ما يعرف بالمياه البيضاء بعدسة العين.
   - التهاب العصب البصري OPTIC NEURITIS الذي يؤدي بدوره إلى فقد البصر.
   - انفصال الشبكية (RETINAL DETACHMENT)

7. الجهـاز المناعي: حيث إن استعمال التبغ يؤدي إلى ضعف الجهاز المناعي؛ وبالتالي إلى تدني قدرة الجسم في مقاومة كثير من الأمراض؛ خاصة الجرثومية منها، وكذلك ما يعرف بالالتهابات الانتهازية، وأمراض حساسية الجلد.

8. تـأثير الـتدخين علـى المـرأة الحامـل سواء أكانت تتناول التبغ مباشرة أو عن طريق الـتدخين الـسلبي؛ فـإن هـذه الأم الحامـل تتعرض للإجهاض والولادة المبكرة بنسبة تفـوق بهـا الحوامل غير المدخنات، وكذلك فإن جنين الأم الحامل المستعملة للتبغ يولد في أحايين كثيرة مصابا بكثير من التشوهات الخلقية ونقص الوزن.

9. للـتدخين تـأثير بنـسبة 75٪ في الإصابة بالصلع الناتج عن تساقط الشعر وإلى تفتت مـدة الكـولاجين الـتي تحـافظ علـى مـرونة الجلـد فتظهـر علـى المـدخن علامات الشيخوخة[20]

10. يؤثر التدخين على العظام ويؤدي إلى ترققها وهشاشيتها[21].

وبـصرف النظـر عمـن اكتـشف هـذه النبـتة ومـن أتى بها وكيف ومتى؟ إلى بلاد

20- بحث نشر في مستشفى جويس بلندن عن (التدخين قاتل صامت) حسان شمسي باشا، مجلة العربي الكويتية، العدد 598، 2008م، ص 173.

21 - HAR ISON ,S PRINCPLES OF INTERNAL MEDICINE

العـرب والمـسلمين فـتلك مـسألة تاريخـية الذي يهمنا فيها أن أغلب المصادر التاريخية تـتفاوت وتخـتلف في زمـن وصولها إلى بلاد العرب والمسلمين لكن رسالة الشيخ إلى أصـحابه بتمكـتو (والمـؤرخة قطعا في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري إذ كانت وفـاة الـشيخ الأسمـر -رحمه الله- سنة (981هـ-1574م) [22] والتي نقل فيها فتوى والد شـيخه الدوكالـي المتوفـى بالإسـكندرية سـنة (799هـ-1396م) أي أواخر القرن الرابع عـشر المـيلادي في تحـريم الـتدخين[23] فهـذا دليل على أن بلاد العرب والمسلمين قد عـرفت الـتدخين مـنذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، أي قبل اكتشاف العالم الجديد (أمـريكا) مـن قـبل الـبحار كريـستوفر كولمبس عام 1492م، أي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

ويذكـر صـاحب كتاب رسائل الأسمر إلى مريديه بأن عادة التدخين وصلت إلى تمبكـتو في أواخـر القـرن الـسادس عـشر الميلادي[24]. فإذا كان كذلك فقد كان الشيخ الأسمـر الذي توفي في أواخر القرن السادس عشر الميلادي سابقا لغيره في محاربة هذه الآفـة اللعينـة في زمـن قياسـي قـصير بـين دخـول هذه العادة إلى هذه البلاد وبين تنبيهه لأصحابه عنها في نفس هذه البلاد

وقـد وضـعت مـا ورد في كلام الشيخ -رحمه الله- في رسالته لأصحابه بتمبكتو بين حاصرتين صغيرتين هكذا: « ... » لتمييزه عن غيره؛ وعقبته بالشرح والتبيين مستعينا بما توفر لي من المصادر التي ذكرت، ومن حصيلة معرفية اكتسبتها بفضل الله خلال ما يقارب الثلاثة عقود كطبيب.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

بيان ما قاله الشيخ عبد السلام الأسمر رحمه الله

قال الشيخ: « وإياكم وشرب الدخان في الفم و الأنف »[25]، والمعنى واضح، وهو وجوب الابتعاد في قوله: (إياكم).

22- رسائل الأسمر إلى مريديه، ص 240

23- المصدر نفسه، ص 240.

24- المصدر نفسه، ص 240.

25- المصدر نفسه، ص 240.

وكلمة (شرب) تعني أن الدخان أي التبغ عندما يلف بورقة خاصة، أو في ورقته بعد تحضيره؛ لتصنع منه السيجارة، وتوضع بين الشفتين بعد إعمال النار في مقدمتها، ثم تشد عليها الشفتان، وتمص مع هواء الشهيق، ليسري الدخان إلى المجاري التنفسية؛ فهذا كناية عن فعل الشرب أو الشراب.

على أن هناك أشكالا وأحجاما من السجائر؛ فهناك السيجارة، والسيجار، والبايب، والغليون، وكل هذه تعمل فيها الشفاه لمصها، وجميعها تؤدي إلى ما ذكرنا من أمراض وعلل.

كذلك فإن كثيرين من مستعملي التبغ يضعون لفائف منها مباشرة في الفم، بين الشدقين، وهو ما كان يعرف إلى وقت قريب بـ (المضغة)، بفتح الميم، فهو نوع من التخزين داخل الفم، كما يخزن ورق القات لدى مواطني بعض الدول، وهذه الطريقة من استعمال التبغ بالفم تخزينا تؤدي إلى تفاعله مع اللعاب وأنزيماته، وامتصاصه عن طريق الغشاء المبطن للفم والبلعوم، وبالتالي سريان مواده التي يتركب منها -والتي ذكرناها آنفا- مع مجرى الدم، مؤديا إلى إصابة كثير من أعضاء الجسم وكذلك التأثير الموضعي للفائف التبغ داخل الفم.

أما قوله (والأنف) فهو يعني بذلك وضع مسحوق التبغ في الأنف بين أصبعين أو عن طريق الحفرة التشريحية الموجودة بين أوتار الأصبع الكبير لليد والمسماة تشريحيا بـ (SNUFF BOX) أو صندوق النشوق -ومن الأنف إلى مجاري الجهاز التنفسي السفلى- فهو مادة غريبة في هذا الجهاز تتفاعل كيميائيا فتؤدي إلى الأمراض التي أشرنا إليها. ثم يقول الشيخ: «وهي شجرة قبيحة الرائحة تسمى بالتابغة».

هكذا يصور شيخنا -رحمه الله- ويصف شجرة التبغ بأنها قبيحة الرائحة والقبح نقيض الحسن[26]، فالمكان الذي يتناول فيه الدخان، وملابس المدخن، ورائحة فمه، ورائحة الملاصقين له، والكأس التي يشرب منها؛ رائحة نتنة، مقززة منفرة، وهي تبقى عالقة بهذه الأشياء مدة طويلة، وقد قبحها الشيخ؛ لأن القبح ضد الحسن؛ ومن قبحه الله باستعمالها قبحت صورته في أعين الأسوياء. ثم يقول: « يذكر أنها خلقت من بول إبليس -لعنه الله- حين سمع قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾

26- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط 4، 1987م. (393/1)

[الحجر: 42] فدهش فبال فخلقت من بوله »[27].

وأعتقد كما غيري أنه لا أحد في العالم ذو عقل إلا ويكره إبليس اللعين، بل ولا يكره شيئا أكثر من إبليس، فكيف ببوله الذي خلقت منه هذه النبتة اللعينة؟!.

والشيخ هنا يسوق هذا الكلام زيادة في التنفير من التدخين؛ لإصابة الهدف من هذه النصيحة، وهي الابتعاد عن التدخين وتركه، وعدم الإقدام على استعماله.

وهذا الأسلوب من التنفير يجد صداه لدا العقلاء والراشدين خاصة عند مريدي الشيخ وأتباعه أكثر مما تلقى الدعايات المضادة والمنفرة من التدخين على أيامنا هذه. ثم يقول: « ولا تعانقوا شارب الدخان، ولا تصافحوه، ولا تسلموا عليه، فإنه ليس من الأمة المحمدية »[28].

وهنا يأمر وينصح أصحابه بأن يبتعدوا عن شارب الدخان، فكأني به يصور لهم وللمسلمين جميعا أن المدخن مصاب بمرض معدٍ، ينتقل إلى المخالطين والملاصقين. فشارب الدخان إذاً ... لا يعانق ... لا يصافح ... لا يسلم عليه ...

جرعات متتالية مترابطة متجانسة في مدلولها وفهمها، والهدف هو التنفير من شارب الدخان ؛ والغاية هي الابتعاد عن تناول التبغ لتكون النصيحة أقوى وأبلغ وأشد، وهي -أيضا- نكاية وازدراء، وابتعاد عن هذا الذي يحمل بين جنباته مرضا خطيرا مهلكا له ولمن يخالطه.

وقوله: « فإنه ليس من الأمة المحمدية » زيادة في التنفير منه. وكونه خارج الأمة المحمدية هذا متروك -حسب رأيي- لعلماء الأمة، ورجال الفتوى، وليس من اختصاصي إبداء الرأي فيه. ثم يقول الشيخ: « وفي خبر أن شاربها من أهل الشمال »[29]. أي من الذين يؤتون كتابهم بشمالهم يوم القيامة، فهو من أهل النار، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: 25-26].

وهكذا يصور الشيخ رحمه الله شارب الدخان يوم البعث والحساب فهو عنده من أصحاب النار يومها، وأي مصير يلقاه؟! في حياته نكد وغم ومرض ومن الناس تقزز

27- رسائل الأسمر عبد السلام الإدريسي الحسني إلى مريديه، ص 240.

28- المصدر نفسه، ص 240.

29- المصدر نفسه، ص 240.

وازدراء وبعد، وبعد الممات جهنم وبئس المصير.

ثم يقول: «وهو شراب الأشقياء، لذلك لا تعطى لهم الأمانات ولا يسلم عليهم في الجماعات»[30]، والأشقياء جمع شقي، من الشقاء والشقاوة بالفتح نقيض السعادة[31]، والمشاقاة هي المعاناة[32]، أو هي الشدة والعسر[33]، أي أن من يشرب الدخان بعيد عن السعادة لأنه مريض نفسيا وجسميا وغير مقبول اجتماعيا ولا يؤتمن؛ لأنه عبد لشهوة شيطانية وعادة سيئة تؤثر في عقله وسلوكه، ومن كان عبدا لغيره، ولا يملك زمام أمره؛ فَقَدَ أهلية التعامل فلا يأتمنه الناس بل وتخشى خيانته، فالأمانة لا ترتجى من عبد لهوى شيطاني قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

وبرغم أن شيخنا كان يتحدث عن التدخين في وقت لم تكن فيه نتائج التدخين قد ظهرت بصورة عامة ومؤكدة؛ كما هي عليه اليوم من وجود الدراسات والأبحاث والعلماء والمعامل التي أظهرت وأكدت -بما لا يدع مجالا للشك- أثر التدخين على الصحة؛ إلا أن كلامه يرقى إلى مستوى عال مما نحن عليه اليوم من معرفة أضرار الدخان بفضل الاتصالات والميكنة، والتقدم العلمي بشتى صوره.

وإني لم أر ولم أقرأ في حياتي كطبيب ومتابع لما يكتب وينشر ويذاع في الكتب الطبية والنشرات الصحية والبرامج المرئية -رغم الأرقام المهولة عن عدد الوفيات بسبب التدخين وعن المبالغ التي تبلغ المليارات والتي تصرف في استهلاك التبغ، أو تنفق في علاج أمراضه في جميع أنحاء العالم- مثل ما قرأت ما قاله الشيخ فيه بلغة بسيطة في تركيبها اللغوي قوية في معناها ومفهومها ومدلولها لتصيب الهدف الذي كان يسعى إليه الشيخ، وأعتقد جازما وكما يرى الأسمر نفسه في أن الشيخ لا يتأهل للإرشاد حتى تتوفر فيه شروط خمسة وهي: علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، وبصيرة نافذة[34]، وأن هذه الشروط قد توفرت لدى هذا العالم الجليل فهو في

30- رسائل الأسمر عبد السلام الإدريسي الحسني إلى مريديه، ص 240.
31- الصحاح (2394/6).
32- المصدر نفسه.
33- الطاهر الزاوي: مختار القاموس، الدار العربية للكتاب ص 336.
34- رسائل الأسمر إلى مريديه، ص 115.

علمه بلغ مرتبة لم يرق إليها إلا القليلون.

قال عنه البحر الدفوق سيدي أحمد زروق: «عبد السلام سلطان زمانه»[35]، وقال: «عبد السلام أصغر مني سنا، وأكثر مني علما وفهما، وزهدا وعبادة، وفقرا إلى الله»[36]. ويقول عنه عثمان بن عز الدين بن عبد الوهاب بن عبد السلام الأسمر في كتابه (فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم): «وهذا شأن الأطباء العارفين، يعطون لكل علة من علل النفس ما يقطعها ويستأصلها، كالطبيب الماهر يعرف العلة ويعرف ما يصلح بها من الأدوية»[37].

وتذكر الكتب والمقالات والبحوث التي كتبت عن الأسمر مدى غزارة علمه وتقواه، وكيف جاهد وكابد ليوصل النصيحة لأتباعه ومريديه، والناس كافة، فها هو يوصيهم: «ومن علمه الله علما فليعمل به، ومن لم يعمل به فهو أشر من الجاهل، ومن جهل منكم فليسأل عما فرض الله عليه، فلا عذر للجاهل في عدم السؤال، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7]»[38].

وأعتقد أن في ورقتي البحثية هذه وصل للحاضر بالماضي وتعميق لأسس بناء المستقبل ووقف لموجة الإساءة وراكبيها لشيخنا الجليل وأمثاله ممن بصموا تاريخ هذه الأمة بنور العلم النافع واليقين الراسخ فكان الشيخ الأسمر رائد علم الطب الوقائي في عصره من خلال ما ذكرنا، وهو درس لشباب هذه الأمة، بل دروس يستفيدون منها في انطلاقهم بأمتهم نحو التجديد والعطاء بدون كلل، أسوتهم في ذلك هؤلاء الذين عمروا البلاد وأنقذوا العباد وكان علمهم وصلاحهم هو الزاد وفي سيرة هذا الشيخ وعلمه وورعه وتقواه مفخرة للأجيال ونبراس لشحذ الهمم للوصول إلى القمم،

وندعو الله أن تكون هذه التظاهرة العلمية قطرة البداية لغيث عميم ينبعث من هذه المنارة عن تلك الزاوية من هذه المدينة في هذه البلاد لتصحيح التاريخ، ونفض الغبار

35- أحمد حامد عبد الكريم الشريف: النفحات الفيتورية في القصائد الأسمرية. دار السعادة للطباعة، مصر، ط 1، 1418هـ، ص 31.

36- المصدر نفسه.

37- نفح الرياحين من رسائل سلطان العارفين للإمام الأسمر ﷺ (دراسة وتحقيق): علي محمد مختار جوان. دار الكتاب الوطني، بنغازي، 2007م.

38- الوصية الكبرى ص 14، عن كتاب بحوث ودراسات في العقيدة والفكر والدعوة.

الذي علق بسيرة هؤلاء العمالقة مثل سليل الشرف، والماء الغرف، والظل الورف، والعبد الصالح، والعالم الناصح، والزاهد التقي، والنور الجلي، عبد السلام الفيتوري.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد في الملإ الأعلى، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

شكر وتقدير لمن ساعدني وشجعني في إتمام هذا البحث وإخراجه على الصورة التي هو عليها خاصة المهندس عطية قنيص والشيخ إبراهيم ثبوت جزاهم الله خيرا.

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصادر العربية

1. القرآن الكريم
2. أحمد زروق والزروقية (دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة): علي فهمي خشيم. دار مكتبة الفكر، طرابلس، ط 1، 1975م.
3. بحوث ودراسات في العقيدة والفكر والدعوة: الصديق عمر يعقوب.كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1994م.
4. تنقيح روضة الأزهار ومنية السداة الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر ﷺ: الشيخ كريم الدين البرموني. تحقيق محمد بن محمد بن عمر مخلوف، مكتبة زهران القاهرة.
5. رسائل الأسمر عبد السلام الإدريسي الحسني إلى مريديه (دراسة وتحقيق): مصطفى عمران رابعة. دار المدار الإسلامي، بيروت، ط 1، 2003م.
6. العربي العلمي (ملحق علمي يصدر مع مجلة العربي الكويتية)، العدد (37) ، يونيو 2008م.
7. مجلة الهلال الأحمر، السنة الثالثة، العدد السابع ، أي النار ، 2008م
8. مختار القاموس مرتب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير: الطاهر أحمد الزاوي الدار العربية للكتاب، ليبيا.
9. : الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط 4، 1987م.
10. النفحات الفيتورية في القصائد الأسمرية القطب الغوث سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري ﷺ: أحمد حامد عبد الكريم الشريف، ط 1، 1998م.
11. نفح الرياحين من رسائل سلطان العارفين للإمام الأسمر ﷺ (دراسة وتحقيق): علي محمد مختار جوان. دار الكتاب الوطني، بنغازي، 2007م.
12. شبكة المعلومات (الانترنت). WWW. W H O. INT \ TOBACCO
13. WWW. TOBACCO FREE CENTER ORG.

ب. المصادر الأجنبية

1. DAVIDSONIS PRINCIPLES AND PRACTICE OF MEDICINE.
2. EDITED BY S.R.W. EDWARDIS / I.D.A BOUCHIER , C. HASLETT / E.R CHILVER'S.
3. SEVENTH EDITION 1996.
4. PRINCIPLES OF SPECIAL PATHOLOGY PART 2.
5. GAMAL NADA. MD.
6. PROFESSOR OF PATHOLOGY. FACULTY OF MEDICINE CAIRO UNIVERSITY
7. EL _ AHRAM PRESS _ KORNESH EL _ NIL
8. KUMAR AND CLARK – CLINICAL MEDICINE.
9. ELSEVIER SAUNDERS 6 TH FDITION 2005
10. HAR ISON ,S PRINCPLES OF INTERNAL MEDICINE BY KASPER – BRAUNWALD FAUCI – HAUSER- LINGO – JAMESON 16 TH EDITION 2005
11. CECIL ESSENTIALS OF MEDICINE BY ANDEREOLI 6 TH EDITION 2004
12. BRAUNWALD – HEART DISEASE
13. ATEXT BOOK OF CARFIO VASCULAR MEDICINE 4 TH EDITION
14. INTE ER NATIONAL 1992
15. PAEDIATRIC INFECTIOYS DISEASES
16. PRINCIPLES AND PRACTICE BY HAL B. JENSON.ROBERTS.BALTMORE APPLETON ANF LANGE NORWALK.CONNECTICUT 1995